

1999

بعض الإشكاليات والقضايا النظرية الخاصة بمجتمعات عصور ما قبل التاريخ والعهود التاريخية العتيقة -حوض البحر الأبيض المتوسط كنموذج

عبد السلام التايب
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat>



Part of the [History Commons](#)

Recommended Citation

التايب, عبد السلام (1999) "بعض الإشكاليات والقضايا النظرية الخاصة بمجتمعات عصور ما قبل التاريخ والعهود التاريخية العتيقة -حوض البحر الأبيض المتوسط كنموذج", *Dirassat*: Vol. 9 , Article 2.
Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol9/iss9/2>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Dirassat by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aarj.edu.jo, marah@aarj.edu.jo, u.murad@aarj.edu.jo.

بعض الإشكاليات والقضايا النظرية الخاصة بمجتمعات عصور ما قبل التاريخ والعهود التاريخية العتيقة «حوض البحر المتوسط كنموذج»

عبد السلام التايب
كلية الاداب والعلوم الإنسانية
أكادير

يستعرض الموضوع بعض القضايا الأساسية التي هي الآن مطروحة في إطار التجديد
وذلك على مستويين :

1. مستوى المناهج والمشاكل المتعلقة بدراسة المجتمعات العتيقة . وأهم القضايا
تهم أساسا المشاكل المنهجية المطروحة أمام التحليل التاريخي المتعلق بحوض البحر
المتوسط قديما .

2. أما المستوى الثاني فيهتم بقضايا الإتصال بين التاريخ القديم وباقي العلوم
الإنسانية الأخرى . لقد عرف البحث في التاريخ القديم – منذ بداية الستينات في أوروبا
-تجديدا على مستوى المناهج والإشكاليات ، ومع ذلك نتساءل عن أهم العقبات التي
يواجهها مجال البحث التاريخي . الخاص بالعالم القديم ؟

بالنسبة للتاريخ القديم توجد حالة خاصة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالطبيعة النوعية
لمصادره ، فهو باعتماده على استغلال متزامن للمصادر المكتوبة والأثرية يتوقف على
تجديد وبناء الوثائق الأساسية من نصوص أدبية ونقوش وبرديات وقطع نقدية وصور وسكن

وأدوات منزلية... منتعشا ومزودا بتقنيات صعبة تتطلب تخصصا من مستوى عال، وفي هذا الإطار تلعب العلوم المساعدة الأخرى⁽¹⁾ دورا مركزيا، قد لاتلعبه النصوص المكتوبة أحيانا وتبقى مواضيع هذه البحوث من الطراز المونوغرافي: قد ندرس بشكل مستفيض حياة حاكم أو أمير أو تاريخ مدينة أو معبد أو منطقة بل أحيانا مجرى من المجاري النهرية، وطبعاً يكتسب البحث أهميته من قدرة الباحث على تقديم تصحيح أو إعادة بناء أو دراسة جريئة لنسق أركيولوجي بشكل منطقي ومتكامل.

وبالإنطلاق من هذه البواعث المرتبطة بطبيعة المصادر، هل يمكننا الآن إدخال اعتبارات أخرى مرتبطة بالشكل التقليدي في تكوين المؤرخ القديم (مدارس ومعاهد) وكذا بالنماذج الأيديولوجية الموروثة عن هذه المؤسسات؟

وهنا نكون وضعنا أصبعنا على عنصر محدد ألا وهو التطور التاريخي للبحث العلمي ببعض الدول (بأوروبا الغربية خاصة) التي لها تقاليد عريقة في الاهتمام بالعالم القديم، لكن المشكل المطروح هو أن التعليم في مستواه العالي كان سابقا يعهد بدراسة التاريخ القديم الى المهتمين بالآداب وطبعاً هؤلاء غير متوفرين على أي تكوين تاريخي، وكأن معرفة اللغتين الإغريقية واللاتينية كافية، والنتيجة هي غياب منهج تاريخي يمكن بحث كل المعطيات حتى المختلفة منها والتي يحتوي عليها كل نص من النصوص، بمعنى غياب مقاييس علمية لاستجواب واستنطاق تلك المصادر التي لا يتم التعامل معها إلا من منطلق الإعتبارات الجمالية والفنية المحضة ورونق تلك النصوص هو الذي يفسر استمرارها محددة بذلك حضارة كلاسيكية لامعة وفريدة وأبدية لا يمكن تعويضها.

من جهة أخرى فإن مدارس البحث المختصة والمعاهد الحديثة⁽²⁾، قد لعبت دورا حاسما في توجيه الأبحاث مضيئة إلى التكوين الأدبي الصرف تكوينا أركيولوجيا يهتم هو الآخر بالنواحي التقنية والجمالية، مما ترتب عنه عدم اهتمام تام بالبقايا المادية البسيطة والمتواضعة للحضارة القديمة بالرغم من أنها أغنى بكثير من التحف المصورة أو المنقوشة أو المنحوتة.

(1) كعلم الآثار وعلم دراسة النقود ثم دراسة النقوش والكتابة. وكذا الأنتولوجيا وعلم الاجتماع....

(2) معاهد المدرسة الفرنسية والمدرسة الألمانية والمدرسة الأنجلزية والمدرسة الايطالية والمدرسة الاسبانية.

وهكذا تم التخلص فيما مضى من أطنان مكدسة من القطع الخزفية التي كان بإمكانها أن تشكل قاعدة صلبة لأية دراسة اقتصادية للعصر العتيق. وبموازاة هذا الخلل فإن تركيز الأبحاث على المجال المتوسطي القديم وبالخصوص في جزئه الشرقي، قد أعاق إلى حد كبير تطور الإشكالية وذلك بإقصاء كل تساؤل عن المجالات المتبربرة مع أنها لم تكن طبعاً مجهولة عن المراكز الحضارية الكبرى بالعالم المتوسطي -على الأقل- على المستوى المادي حيث كانت تنزود منها بالمواد الغذائية وبكل أنواع المعادن الضرورية. وغياب الإهتمام بهذه المناطق الواقعة بعيداً عن المراكز الحضارية جعل البحث في التاريخ القديم، ولمدة طويلة، عقيماً بل فقيراً إلى حد ما. كما شكل ذلك الغياب عائقاً في وجه كل دراسة مركزة للبنيات وللتطورات الاقتصادية.

أمام هذه النقائص ماهي وسائل تجديد التكوين وكذا المناهج لذى مؤرخي العالم القديم؟ وماهي العلاقات التي قد تربط الأبحاث المعاصرة في التاريخ القديم بالعلوم الإنسانية الأخرى؟. أولاً وقبل كل شيء لا بد من إثارة الانتباه إلى تراجع مشكل أساسي وهو عزلة الباحثين في تاريخ العالم القديم، بيد أن هذه العزلة بدأت تتراجع بعقد ندوات وأيام دراسية وظهور مراكز للبحث العلمي، مما ساعد على مناقشة وتطوير منهجية البحث وتكوين مجموعة عمل مختصة، وبموازاة ذلك حصل تجديد في القواعد التقليدية للبحث كما أن تضاعف حجم الوثائق مكننا من قراءة وتفسير جديدين، وخير مثال على ذلك هو أن فك رموز الألواح الهيروغليفية والميسينية والمسمارية قد أحدث انقلاباً جذرياً في معرفتنا للملكيات المحلية التي مكنتنا من اكتشاف شكل من أشكال التنظيم البيروقراطي وكذا النظام العقاري وخصوصيات المعتقدات. ولتأريخ البقايا الأثرية وتحديد مواقعها بشكل دقيق أصبحت تستعمل مجموعة من الأساليب والتقنيات منها:

أ - الكربون 14 المشع من الناحية الكيماوية يتحرك كما تتحرك ذرة الكربون العادي أي يمكن أن يختلط بذرة الأوكسجين ليعطي ما يعرف بالحامض الكربوني وهذه المادة تتوفر عليها جميع الكائنات الحية (3)، وتستعمل هذه الطريقة لدراسة كل البقايا

(3) يعتبر الحامض الكربوني من المواد المشعة وبفعل ذلك فهو يتحلل، أي أن كميته تضيق ويكون ضياعها ابتداءً من وفاة الكائن الحي. وقد توصل العلماء إلى أن كمية الكربون 14 يمكن أن تقاس، وقياساً للكمية المتبقية يمكننا الوقوف على تاريخ المواد بدقة في كثير من الأحيان.

الحية، من خشب وفحم وقماش وبقايا الحبوب... وإذا توصلنا إلى معرفة تاريخ المادة المدروسة، فإن ذلك يمكننا من الوقوف على تاريخ المكان الذي وجدت فيه (بنايات، قبور...) . وهذه الوسيلة فعالة لأن حدود الخطأ تتراوح ما بين 100 و500 سنة وهي نسبة بسيطة إذا ما قارناها بظهور الإنسان على وجه الأرض والذي يعود إلى أكثر من مليونين وثلاثمائة ألف سنة.

ب - التأريخ بفحص نمو الأشجار (Dendrochronologie) فمن الثابت علمياً أن الأشجار تعمر طويلاً، ومن المؤكد كذلك أنه في كل سنة تتكون حلقة جديدة في جدع الشجرة، وبالاتفاق من هذه الحقيقة العلمية فإن عدد حلقات جدع شجرة هو في الوقت نفسه عدد السنين التي عاشتها تلك الشجرة، لكن مع ذلك على الدارس أن يأخذ بعين الاعتبار عامل المناخ الذي يؤثر على التكوين العام للشجرة، إذ يلاحظ أن هناك اختلافاً في سمك حلقات الشجرة بين الفترات الرطبة والفترات الجافة.

ج - هناك طرق أخرى تستعمل في تأريخ المواد الأثرية، كالإضاءة الحرارية المستعملة خصوصاً في دراسة الخزف، إذ مكنت هذه الطريقة - في كثير من الحالات - من تحديد تواريخ قريبة من الحقيقة، مما أدى إلى إعادة النظر في عدد من الثغرات الكبرى للتأريخ الإقتصادي مثال خزف أريزو Arezzo بإيطاليا القديمة (4).

د - التأريخ بالطريقة الميغناطيسية (5)، ذلك أن المواد الأثرية تتأثر بميغناطيسية الأرض، ويمكن للباحث المختص أن يحدد تاريخ المادة انطلاقاً من قياسه لدرجة ميغناطيسيتها.

هـ - كما أن الالتجاء إلى بعض التقنيات العلمية كتحليل عجّين الخزف وعمليات التمثيل البرونزية وكذا القطع النقدية اعتبر دائماً كأساس لكل تجديد في الأبحاث التاريخية.

(3) يعتبر الحامض الكربوني من المواد المشعة وبفعل ذلك فهو يتحلل، أي أن كميته تضيق ويكون ضياعها ابتداءً من وفاة الكائن الحي. وقد توصل العلماء إلى أن كمية الكربون 14 يمكن أن تقاس، وقياساً للكمية المتبقية يمكننا الوقوف على تاريخ المواد بدقة في كثير من الأحيان.

(4) Voir F. Boitani et autres, cités érusques, à la découverte d'une civilisation encore mystérieuse, Bruxelles, 1975.

R. Ginouves, l'archéologie Greco-Romaine. Coll. Que Sais-je, Paris, 1982.

(5)

ر - بعد هذا لابد من الحديث عن دور علم دراسة الطبقات الجيولوجية (6) في البحث Stratigraphie. فما هو معروف هو أن الطبقات السفلى أقدم من الطبقات العليا، ولكن الأهم في هذا الموضوع هو العامل البشري الذي يغير من طبيعة المكان من قاحل إلى مسقي ومن غابوي إلى مجشت... كما يصنع أدواته بنفسه... وبحكم تاريخ الإنسانية الطويل فالأماكن قد تعاقبت عليها الأجيال مع مرور الزمان مما يعني أنه في الموقع الواحد يمكن أن نجد عدة مستويات للتواجد الإنساني، وبحكم التاريخ فكل فترة تاريخية معينة تتميز بعناصر حضارية متميزة عن الفترات الأخرى، وهذه المخلفات تختلف في نوعية تكوينها وهذا الاختلاف هو الذي يعرف بالحضارات. هذه المخلفات هي المادة الأولى للأثري وهي التي نقف عليها في التراكب الطبقي وهي التي نعرفنا من ناحية بتاريخ الموقع ومن ناحية أخرى بثقافات المجموعات البشرية التي عاشت في ذلك الموقع. هكذا إذن تظهر أهمية علم طبقات الأرض، لأننا نقف على تاريخ الموقع خاصة وأنها إذا أغفلنا قضية التتابع الطبقي سنغفل التاريخ وتتابع الفترات (7).

كما أن الاستكشاف الجوي بالطائرة (8) قد مكن من الأخذ بعين الاعتبار تنظيم مجال جغرافي وتاريخي معين كدراسة السكن في نهاية عصور ما قبل التاريخ في جهات متعددة من حوض البحر الأبيض المتوسط.

وفي مجموع هذه الحالات فإن الاستفادة من هذه التقنيات الجديدة ليست لها فقط فائدة كمية، أي توسيع مخزون المعطيات بقدر ما تطرح أمام المؤرخ عددا من المشاكل الجديدة (9) هكذا ففي جل تلك التقنيات فإن المعطيات الجيولوجية والايكولوجية تضع الانسان في موقعه الطبيعي، ومن ثم فإن تقدم هذه الأساليب على مستوى الدراسة العليا

Ibid, p: 80.

(6) Voir C.A. Moberg, Introduction à l'archéologie, Paris, 1976. R. Chevalier, Méthodes de (7) Prospection et de datation, les dossiers de l'archéologie, n°39, Nov-dec, 1979.

Voir, R. Chevalier, L'avion à la découverte du passé, Paris, 1984, voir aussi R. Agache, (8) Détection aérienne de vestiges protohistoriques, Bulletin de la société de préhistoire du Nord, n° 27, 2ème éd. 1971.

R. Ginouves et AM Guinier-Sorbets, la Constitution des données en archéologie classique, (9) Paris, 1978.

للمادة قد ساهم بقسط وافر في تجديد أساليب البحث وفي إعادة النظر في المنهجية وكذا الاهتمام بقراءة في عين المكان لكل المعطيات التي تساعد على فهم محتوى اللقى الأثرية⁽¹⁰⁾ فتجديد المنهجية الذي يمر أساسا عبر دراسة كمية للوثائق والمصادر المكتوبة يتطلب أيضا دراسة شاملة لكل المواد الأثرية.

كما أن المعلومات⁽¹¹⁾ تلعب دورا مركزيا في فتح إمكانيات واسعة للبحث والعمل، خاصة إذا عرفنا الأعداد الهائلة من المعلومات المستخرجة من الآثار حيث تستعمل لمعالجتها وكذا لمعالجة الحقائق المجموعة في مدونات للمنقوشات والقطع النقدية، كما تستخدم لتحقيق الفهارس والنصوص الأدبية، فهي إذن تشكل وسيلة مريحة لخزن كميات هائلة من المعطيات التي تصبح سهلة للتواصل والإحصاء والمقارنة، واليوم فإنها تمكن من القيام بأبحاث معمقة واكتشاف عدد من الحقائق العلمية انطلاقا من دراسة مجموعة من المصادر الأثرية. إضافة إلى أن التوسع المتزايد للمجال الجغرافي في الأبحاث يشكل عنصرا رئيسيا لكتابة تاريخ عام للعالم القديم، وكمثال على ذلك فافتصاد عالم البحر المتوسط قديما لا يمكننا فهمه دون دراسة الجهات التي تضمن تمويله من بعض المعادن كالقصدير الذي كان يأتي من المناجم كاسيتيريد⁽¹²⁾ Cassitérides ثم دراسة قلب إفريقيا الذي كان يغطي جزءا من حاجياته من الذهب، وكذا الهند أو حتى ما وراءها التي كانت مصدرا يسد حاجته من بعض الموارد النادرة (التوابل...).

كما أن هذا أمر صحيح حتى بالنسبة لعلم اللغة أو اللسانيات، حيث من المؤكد أن عددا من المعطيات اللغوية قد استفاد منها حتى المؤرخ إلا أن التطبيق لا يمكنه أن يتناول إلا في حدود تحليل مستويات أشكال التعبير التي تربطه باختصاصات أخرى للنشاط

(10) Ibid, L'analyse des objets archéologiques et les procédés statistiques d'interprétation, les dossiers de l'archéologie, n° 42; Mars - Avril 1980.

Banques de données en archéologie, Compte rendu de colloque organisé par: M. Borillo, J. Gardin et B. Jaulin, (11) Paris, 1974.

(12) كسيتيريد Cassitérides هي جزر اسطورية منتجة للقصدير، حيث حدد الجغرافيون القدماء موقعا في عرض السواحل الغربية لأوروبا، ومناجم القصدير التي كانت تستغل من طرف الفينيقيين والقرطاجيين والرومان تقع بإسبانيا وفرنسا، لكن المعاصرين شبهوها بجزر Scilly بجنوب غرب إنجلترا، لهذا فاسم جزر Cassitérides في التصور الاغريقي يتطابق فقط مع فكرة أن القصدير قد وجد في مكان ما وراء البحر الأبيض المتوسط في اتجاه الغرب.

الاجتماعي، وهو ما نحاول اليوم القيام به لضبط العلاقات بين أشكال تمثيل ظاهرة العبودية مثلاً والعبيد والمعتقين من جهة وبين تطور التكوين الاجتماعي من جهة ثانية، ونمط الإنتاج العبودي من جهة ثالثة.

فما هو واضح هو أن الإلتجاء إلى العلوم الإنسانية الأخرى يفتح آفاقاً واسعة وجديدة لبحث واستغلال المادة العلمية التي أصبحت غزيرة بفضل تلك العلوم، كما أنه يمكن مؤرخي العالم القديم من تحمل مسؤوليتهم بشكل تام، وفي هذا الإطار أرى من الضروري طرح السؤال التالي: هل تطور التاريخ الاجتماعي في علاقته مع الاقتصاد السياسي لهما تأثير على مستوى تجديد دراسات تاريخ العالم القديم؟

فتطور إمكانيات تقنية جديدة للبحث تسمح حالياً بمستويات متوالية لقراءة آنية للنصوص وكذا لمجموع الوثائق المادية المتوفرة من سكن وأدوات وبنيات زراعية وإنتاج خزفي ومعدني...، فانفتحت وبشكل موضوعي مجالات جديدة لبحث تاريخي معمق مكنت مؤرخي العالم القديم من قراءات متتابعة لمختلف أنواع المصادر، قراءات تصل بدون شك إلى تركيب منسق ومنظم للمعطيات، هذا التركيب يسهل وحده عملية فهم الأبعاد وشبكة الترابط المعقدة للمجتمعات القديمة. وفي هذه المرحلة النهائية والحاسمة من البحث فإن تأويل تلك المعطيات يساعد على العمل وعلى التحكم في مفاهيم وآليات تستمد أصلاً من الاقتصاد السياسي والتي تعتبر كوسائل أكثر علمية، فيصبح التحليل بذلك متجاوزاً للملاحظات والتأويلات البسيطة والعادية مسجلاً أكبر مجهود لإبراز تطور العالم القديم؟ ففي واقع الأمر إن إسهامات الإثنولوجية في معرفة وسائل العمل والإنتاج أو معرفة أشكال التنظيم الاجتماعي والسياسي قديماً وفهم الكتاب القدماء حيث ما كان يمكن القيام به هو قراءة مباشرة للنص في مستواه الأولي، خاصة وأن الانشغالات الاقتصادية قليلاً ما تكون سهلة القراءة بشكل مباشر في النصوص القديمة.

لنتحدث مرة أخرى عن إخصاب وإغناء أبحاث التاريخ القديم بمساهمة العلوم الإنسانية، هل يمكننا التركيز عما تقدمه الإثنولوجية من مساهمات كتكملة للمعطيات الأركيولوجية في بعض الحالات - في دراسة البقايا الأثرية وأدوات الإستعمال اليومي التي

فامتداد واتساع هذه التحاليل على معطيات أخرى التي يمكنها كشف التطورات الإثنولوجية نفسها، هذا الامتداد هو الذي ينعش ويقدم كل دراسة مهمة بالديانة القديمة.

وعموما يمكن ملاحظة أن أعمال المؤرخة Jeanmaire قد أثارت بحق انتقادات لاذعة من طرف عدد كبير من المؤرخين المختصين بتاريخ العالم القديم الذين لم يكن في رأيهم لائقا مقارنة البنيات الإغريقية التي اعتبرت كمحرك وكقاعدة لحضارة جديدة أي الحضارة الغربية ببنيات مجتمعات إحيائية بإفريقيا أو بالأمازون.

كما لا بد من الإشارة إلى أن كلا من (19) M. Detienne و J.P. Vernant (20) و P. Vidal Naquet (21) قد فتحوا للتاريخ القديم آفاقا جديدة وذلك بتحليل عناصر وبنيات الأسطورة كشكل - في آن واحد - متمم ومحرف لحقيقة اجتماعية معينة سالكا طريقا ملتويا للتعرف على بعض بنيات دولة المدينة، فهؤلاء المؤرخين قد تناولوا العالم الإغريقي القديم ليس بالطريقة السهلة أي الحديث عن الأغورة (الساحة العمومية) والإيكليزيا (مجلس الشعب) أو عن السهول، ولكن بتعرضهم لمواضيع قلما نجدها مذكورة في المصادر القديمة مثل : موضوع : الشباب والنساء والحرفيون والعبيد والجهات البعيدة عن مركز دولة المدينة، ومع ذلك فالأمر يتعلق بمحاولة دراسة شاملة لأشكال التفكير وأشكال المجتمع في العالم الإغريقي القديم، ولكن لا الفكر الإغريقي (فكر الشعراء والميثولوجيين والفلاسفة...) ولا المجتمع الإغريقي، قد درسا لحد ذاتهما، وإنما لضبط علاقتهما والتأثير الذي يمارسه كل عنصر على الآخر. وكل النصوص التي جمعتها هؤلاء المؤرخون تدور حول أربعة محاور أساسية هي :

M. Detienne, les maîtres de vérité dans la Crète archaïque; Paris, 1967.

(19)

Ibid, Repenser, la mythologie, Paris, 1972.

Ibid, les jardins d'Adonis, Paris, 1972.

J.P Vernant, Mythe et pensée chez les Grecs, Paris, 1974. Ibid, les origines de la pensée grecque, "mythes et religion." Paris, 1983. (20)

J.P Vernant et P., Vidal-Naquet, Mythe et tragédie en Grèce ancienne, Paris, 1973.

P. Vidal-Naquet, le chasseur noir. Formes de pensée et formes de société dans le monde grec, Paris, 1981. (21)

أ - المجال والزمان

ب - الشباب والمحاربون

ج - النساء والعبيد والحرفيون.

د- دولة المدينة في التفكير الإغريقي وفي الواقع.

وهذه النصوص عبارة عن نصوص أدبية وفلسفية وتاريخية وروايات أسطورية من جهة، ومن جهة ثانية أنشطة اجتماعية: الحروب والإستعباد، ودور تربية الشباب وتشبيد المعالم التذكارية، ومن تم تظهر دراسات هؤلاء أنها تهتم مجتمعا غير الذي اعتدنا التعرف عليه من خلال ما كتبه بعض المختصين في العالم الإغريقي.

هكذا إذن تجدر الإشارة إلى أن الإستفادة من نتائج العلوم الإنسانية الأخرى هي التي فكت الحصار وأزالت كل العقبات والعراقيل التي ظلت لمدة طويلة تواجه الباحث في التاريخ القديم، فنتج عن ذلك تجديد على مستوى المناهج والإشكاليات المطروحة، مما سهل فهم الأبعاد والعلاقات المعقدة التي كانت تربط المجتمعات القديمة عبر تحاليل عميقة تتجاوز الإشارات والملاحظات البسيطة وتهتم بتلك المجتمعات في شموليتها في الزمان والمكان.